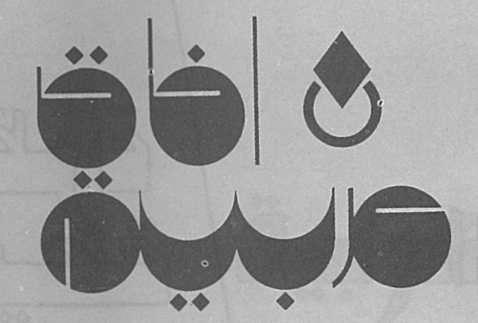

آفاق عربية



مجلة فكرية شهرية عامة تصدر في بغداد رئيس التحرير : شفيق الكمالي

السنة الرابعة
العدد 10
حزيران 1979

المراسلات
مجلة افاق عربية
الصرافية ـ بغداد
هاتف : 22011 22012
صندوق بريد : 4032 اعظمية
العنوان البرقي : فاق ـ عراق



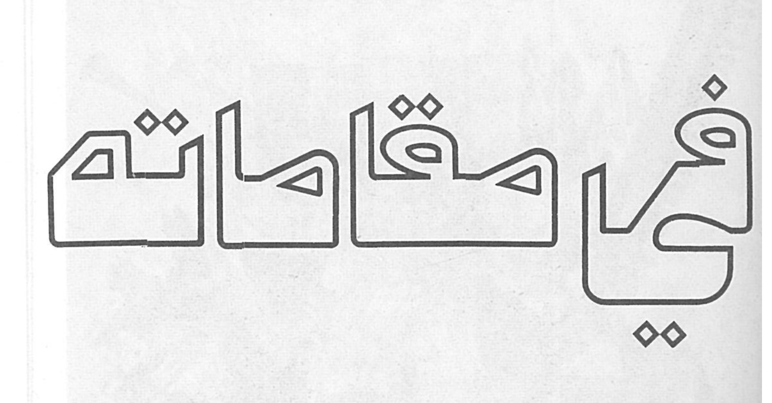
الغلاف الاول : زخارف عربية على احدى الدور في القاهرة 1849

▪ لاتعاد المقالات الى اصحابها سواء نشرت أم لم تنشر
▪ تصميم وطبع موسسة رمزي للطباعة ـ بغداد . تلفون 38051

مع الحريري



د. نوري جعفر



لا شك عندي في ان تقدير الاهمية الاجتماعية والايديولوجية للاديب من ناحية محتوى ادبه أو مضمونه ومن ناحية الجانب الفني أو الجمالي لاسلوب تعبيره وبراعته اللغوية من ناحية اناقة الالفاظ وغزارتها يتوقف ـ بالدرجة الاولى والاهم ـ على النظر الى تراث الاديب نظرة تطورية تاريخية ـ شاملة وعميقة ـ في ضوء قرينته الاجتماعية بالنسبة لعصره ومجتمعه . وهذا يستلزم أن يأخذ الباحث ـ بعين الاعتبار ـ ثلاثة عوامل كبرى متلاحمة ومتبادلة الاثر وان كانت ايضا متميزة عن بعضها بشكل واضح ، فلابد من النظر ـ اولا ـ الى طبيعة الفترة الزمنية التي عاش فيها الاديب المعني من حيث خصائصها التاريخية البارزة المتميزة على الصعيدين المحلي والعالمي ومن ناحية التناقضات الاجتماعية الكبرى الشائعة اثناء تلك الفترة للكشف عن مدى تغلغل الاديب موضوع البحث ـ في اعماقها ومدى نضجه الفكري وحرارة مشاعره وعمقها ومهارته الادبية واصالته الفنية ـ ثانيا ـ من اماطة اللثام عن نزعة الاديب العامة وخصائصه الاجتماعية ومدى نضجه الفكري وحرارة مشاعره ومهارته الادبية واصالته الفنية وسعة الاحكام التي يطلقها على الاحداث والناس و دقتها وعمق الاستنباطات الاجتماعية التي يتوصل اليها كما يبدو ذلك في انتاجه الادبي . ولابد ـ اخيرا من النظر الى فنه اللغوي أو براعته في التعبير في ضوء الاسلوب الامثل الشائع في مجتمعه وغزارة مفرداته اللغوية واناقتها . وهذا هو منطلق دراستي المتواضعة هذه .

ولا شك عندي ايضا في ان للادب صلة عضوية متبادلة الاثر بالسياسة والاقتصاد شأنه في هذا شأن اوجه الحياة الفكرية الاخرى . والصلة المشار اليها اتضحت تاريخيا بشكل أو بآخر في مجتمع الرق وفي عهد الاقطاع . وتتضح ايضا في الوقت الحاضر في جميع المجتمعات بصرف النظر عن اختلاف انظمتها السياسية والاقتصادية . وقد تجلت بأوضح اشكالها المتبلورة في فرنسة في الفترة التي سبقت الثورة الفرنسية عام 1789 على هيئة ولاء (أو انتماء فكري) لهذه المرتبة الاجتماعية أو تلك ولهذه الفئة أو الكتلة الاجتماعية أو تلك في حدود المرتبة الاجتماعية الواحدة . وتجلت بعد ذلك على شكل انتماء طبقي أو قومي أو اقليمي محلي . وهذا هو بنظرنا مبدأ الالتزام في الادب الذي هو في جوهره ـ من هذه الزاوية ـ شكل من اشكال الانتماء او الولاء أو الالتزام السياسي والاقتصادي الذي يستند بعد التحليل الدقيق الى فلسفة معينة يتخذ منها الاديب بشكل أو بآخر نقطة انطلاقه في انتاجه الادبي . والالتزام المشار اليه يتخذ في مجال الادب بصورة خاصة أحد شكلين متنافرين هما على وجه العموم الالتزام التقدمي ونقيضه الرجعي . وهذا يعني بعبارة أخرى ان الاديب يتخذ موقفا خاصا به سلبيا أو ايجابيا مقبولا أو غير مقبول بنظر غيره ازاء الواقع وبخاصة الاجتماعي منه والسياسي والاقتصادي الذي يصفه في أدبه بشكل أو بآخر ضمنيا بالتلميح أو عن طريق الرموز والالغاز أحيانا أو بشكل سافر صريح أحيانا أخرى . وهذا الموقف يتجلى اولا وقبل كل شيء في الجوانب السياسية والاقتصادية التي ينتقيها الاديب من الواقع الذي يعيش فيه والتي يركز اهتمامه فيها اكثر من غيرها ويجسدها ـ وربما يبالغ فيها ـ ويجعلها محور أدبه ويجلب انظار الآخرين نحوها . كما يظهر موقفه أيضا في اطرائه بعض ما ينتقيه أو يختاره من واقعه الاجتماعي وفي شجبه نقيضه . وهنا تتضح أيضا نزعته الاجتماعية التقدمية أو الرجوعية مع اختلاف في درجة تقدميتها أو بالعكس . وقد يقع الكاتب أثناء ذلك ـ دون قصد أحيانا ولعوامل لا سيطرة له عليها ـ في تناقض ملحوظ أو ضمني عرضي أو طارىء يبدو في نتاجه الادبي اذا ما طبقت عليه مقاييس غيره ممن عاصروه أو جاؤوا من بعده .. وكثيرا ما يحمل الكاتب نفسه آراء مغلوطة أو رجوعية جنبا الى جنب مع آرائه الصحيحة التقدمية وذلك بفعل ظروف بيئية محلية لا سيطرة له عليها في كثير من الاحيان . ومحك ذلك برأينا ليس هو مجرد وجود الآراء المغلوطة أو الرجوعية ذاتها (حتى وان كانت متأصلة وغير طارئة) وكثيرة أيضا بل هو موقعها أو مكانتها في تفسير نزعته العامة ازاء قضايا مجتمعه وعصره الكبرى الملحة وتاريخ نشوئها عنده .. فاذا كان اتجاهه العام سليما وتقدميا في ملامحه الكبرى في مرحلة نضجه الادبي بالنسبة لظروف مجتمعه وعصره فان اخطاءه الاخرى ـ الكبيرة والكثيرة أحيانا ـ لا تقلل بأية حال من الاحوال من منزلته الادبية التقدمية . وفي هذا الضوء يبرز الحريري (1054 ـ 1122) كاتبا تقدميا بارزا وأصيلا بمقاييس عصره ومجتمعه وبمقاييسنا الراهنة على حد سواء .

لقد كان الحريري أديبا تقدميا ملتزما من الناحيتين الاجتماعية والايديولوجية ومن الناحية الفنية الجمالية اللغوية . كما كان أيضا أديبا ملتزما من ناحية محتوى أدبه ومن ناحية اسلوب التعبير فقد كان ملتزما (من حيث المحتوى الاجتماعي) بمبدأ العدالة الاجتماعية وملتزما أيضا باستهجان الظلم والاضطهاد . وكان ملتزما (من ناحية التعبير) بكل ما هو أنيق وجميل من حيث الالفاظ المترفة المنتقاة ومن ناحية انتظامها في العبارات والفقرات والمقامات . وكان ملتزما أيضا ازاء تمجيد كل ما هو

جميل ونظيف في علاقات الناس الاجتماعية وتصرفاتهم من جهة وازاء شجب كل ما هو قبيح وناب في سلوك الافراد وفي ارتباطاتهم الاجتماعية من جهة أخرى . وقد ظهر ذلك كله بأجلى صوره في مواقف الحارث بن همام الذي يرمز الى الحريري نفسه ازاء تصرفات أبي زيد السروجي الذي يعبر عن الشائع المستهجن في علاقات الناس . والحريري من هذه الزاوية أديب تقدمي بمقاييس عصره ومجتمعه وبمقاييسنا الراهنة أيضا . وهذا يعني بعبارة اخرى أنه كاتب لامع تخطى حدود عصره ومجتمعه وخاطب الاجيال اللاحقة وما زال كذلك الى اليوم وسيبقى . فما زالت مقاماته تتحدى الزمان والمكان ولا تقتصر اهميتها على ظروفها المحلية الزمانية والمكانية : اي ان الحريري لم يكتب لمعاصريه حسب وانما كتب ايضا لغير معاصريه : للقراء المحتملين عبر الاجيال وفي مختلف المجتمعات .

عاش الحريري ـ كما هو معلوم ـ في ظروف اجتماعية (اقتصادية وسياسية) متردية منذ بداية القرن الحادي عشر الميلادي (القرن الخامس الهجري) وبخاصة بالنسبة لجماهير الشعب ومراتبه الدنيا . فقد ساءت كثيرا الاوضاع الاقتصادية والادارية واصبح الاستقرار السياسي مفقودا والامن مزعزعا . وبدأ الناس يشعرون بالتمزق والضياع أو عدم الانتماء . أما العوامل الاساسية التي ادت الى ذلك فتعود في الاساس الى تدهور السلطة المركزية (الخلافة العباسية) الامر الذي ادى الى تمرد الامراء على المركز وانفصالهم في مقاطعاتهم عن جسم الدولة الواحد تلو الآخر وتكوينهم دويلات أو امارات متعددة ومتنافرة وتفرقوا شيعا فكل مدينة : فيها امير المؤمنين ومنبر (بعضها غريب عن البيئة العربية) كما حصل أثناء فترة الحكم البويهي 334 ـ 447 هـ واثناء فترة حكم السلاجقة الذي اعقب ذلك واستمر اكثر من قرن وهو العهد الذي نشأ فيه الحريري وترعرع وشهد أيضا مصرع الملك السلجوقي ملكشاه ووزيره نظام الملك . كما ان الفترة التي عاش فيها الحريري شهدت بداية الحروب الصليبية واحتلال القدس وكان ذلك قبيل سقوط الخلافة العباسية بزهاء قرن ونصف .

وبالرغم من التردي السياسي المشار اليه ـ وربما بسببه ـ فقد انتعش الادب (وان كانت سوقه كاسدة بتعبير الحريري نفسه : بمعنى أن مردوده المادي ضئيل للعوامل السياسية والاقتصادية المتردية التي اشرنا اليها) . وقد برز الحريري ـ في تلك الفترة بالذات ـ اديبا من الطراز الاول . ويلوح ان ظاهرة انتعاش في ظروف سياسية واقتصادية فاسدة ظاهرة مألوفة في التاريخ . فقد شهدت فترة التدهور السياسي والاقتصادي في اسبانية في القرن السابع عشر مثلا انتعاش الادب وظهور فئة من ابرز الكتاب في تاريخها نذكر منهم على سبيل المثال لا على سبيل الحصر فلاسكوز وزربران وربيرا وكالديرون وسيرفانتيز ولوب دي فيكا . وشهدت روسية القيصرية الاقطاعية المتدهورة سياسيا واقتصاديا في النصف الاول من القرن الماضي تقدما ادبيا مذهلا عندما برزت فئة من المع الكتاب والشعراء والفنانين يأتي في مقدمتهم بوشكين وكوكول وميرمونوف كيليفكا وداركو مشيفزكي وفيداتوف . كما شهدت روسية القيصرية ايضا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر اثناء تخلفها السياسي والاقتصادي المتمثل بانتشار القنانة والاقطاع والحكم القيصري الاوتوقراطي الفاسد تطورا ادبيا رائعا ممثلا في ترجنيف ودوستويفيزكي وتولستوي وجيكوف وشيدرن ومسوركازكي وبوردون وربين وجيكوفيزكي وسرتيكوف .

من كتاب مقامات الحريري ـ المقامة السابعة رسم يحي الواسطي 634هـ 1237م المدرسة البغدادية



تجنب الحريري على القدر المستطاع الانغمار المباشر والعنيف في الملابسات السياسية والتيارات الاجتماعية الحادة المتضاربة . وتحامى الصراع الدائر آنذاك بين مختلف الفئات السياسية المتنافسة من أجل الاستئثار بالسلطة السياسية رغم روابطه بالمسترشد بالله (1093 ـ 1132) الخليفة العباسي التاسع والعشرين عبر وزيره جمال الدين عميد الدولة كما سنرى لا عبر وزيره الآخر شرف الدين أبي شروان بن خالد بن محمد القاشاني كما يذكر بعض الرواة . كما أنه أيضا كان وثيق الصلة بالامير دبيس بن صدقة الفارس العربي المشهور الذي لقب « ملك العرب » على أيام الحروب الصليبية والذي اطراه الحريري في احدى مقاماته . ورغم أنه شغل منصب « صاحب الخبر » أو « رئيس خدمة الاعلام في ديوان الخلافة » .

اتصف الحريري بثقافته اللغوية الواسعة وبمعرفته العميقة باسرار اللغة العربية وعبر عن ذلك في مقاماته التي هي موضوع بحثنا هذا وفي كتابه « درة الغواص في أوهام الخواص » الذي يبين فيه أوهام الكتاب وأخطاءهم وفي أرجوزته في النحو المسماة « ملحة الاعراب » . هذا بالاضافة الى ديوان رسائله وشعره الكثير بالاضافة الى الشعر الذي ورد في المقامات . وتلك علامات على انصرافه الى الادب وانغماره فيه كهواية رغم « كساد سوقه » . والعامل الرئيس في ذلك هو حالته المالية الجيدة التي ساعدت كثيرا على الانصراف نحو دراسة الادب . فقد كان والده على ما يقول الرواة ـ تاجر حرير في مدينة البصرة ومن هنا اكتسب تسميته بالحريري كما ان لوالده أيضا بساتين نخيل ورثها ابنه بعد وفاته . أما صفة الحريري الاخرى : الحرامي فلكونه عاش في منطقة بني حرام في البصرة وهم قبيلة عربية ، كما أن مقامته « الحرامية »

من كتاب مقامات الحريري ـ المقامة الحادية والثلاثون رسم يحي الواسطي 634هـ 1237م المدرسة البغدادية



مشتقة من هذا الاسم .

شهدت الفترة التي عاش فيها الحريري (والفترة التي سبقتها أيضا) نشوء فئة من الادباء المتجولين المتحدرين من المراتب الاجتماعية الدنيا ـ بمقاييس أهل ذلك الزمان ـ أخذوا يطوفون ارجاء البلاد العربية والاسلامية ينشدون الاشعار ويرددون الطرائف الادبية والنوادر ويعقدون المناظرات الادبية في مجالس الاثرياء والمتنفذين والامراء وفي الاماكن العامة لاكتساب الرزق . ومسلكهم هذا شبيه ـ من حيث الاساس ـ بمسنك فئة اجتماعية مماثلة نشأت في أوربا آنذاك ـ يطلق عليهم اسم « المشردين الذين يتكسبون برواية الاشعار » Vagrant Versifiers وهم في حقيقتهم متسولون Mendicants متجولون أداتهم الوحيدة في كسب الرزق ما ينشدونه من اشعار وما يرتجلونه وما يروونه من قصص خيالية وحكايات خرافية في قصور الامراء وذوي المكانة الاجتماعية المرموقة لاغراض الترفيه وللحصول على المكافآت . وكان بعضهم ينشيء ما يشبه المقامات عندنا (وبخاصة في اسبانيا) يصفون فيه حياة المتسولين المشردين المغامرين الشجعان الذين يتصفون أيضا بشيء من المكر أو الدهاء والاحتيال . اطلقوا على مقاماتهم اسم Picaresque Novellas . غير أن ظاهرة الكدية ـ بشكلها الذليل المتلون ـ كما ظهرت بصورة خاصة في المقامة الثانية : الحلوانية وكما ظهرت بوضوح أيضا في المقامة التاسعة والاربعين : الساسانية ظاهرة اجتماعية غريبة عن المجتمع العربي بنظرنا لانها تتنافى والاباء أو الشمم الذي يتصف به العربي بصرف النظر عن منزلته الاجتماعية الفعلية . وهي ظاهرة اجتماعية دخيلة أو وافدة امتهنتها الفئات الاجتماعية الواطئة الفارسية الاصل التي زعمت ـ على ما يقول بعض الرواة ـ أنها منحدرة من الاسرة الساسانية التي ازرى بها الدهر . أو أنها مهنة ابتدعها شخص فارسي معين بالذات اسمه ساسان كما يبدو في مقامة الحريري التاسعة والاربعين المشار اليها .

أخذت المقامات في الادب العربي طابعها المتبلور عند بديع الزمان الهمذاني (969 ـ 1007) وكان أبو الفتح الاسكندري بطلها وعيسى بن هشام راويتها : وهما معا شخصيتان اسطوريتان (وهميتان) ابتدعهما الهمذاني نفسه (لا بالمعنى الميتافزيقي بل بالمعنى الواقعي كما سنرى) . أولهما ـ أبو الفتح الاسكندري ـ أديب ماكر متلون يلبس لكل حالة لبوسها . والثاني ـ عيسى بن هشام ـ تاجر موسر يتنقل في ارجاء المملكة العربية الاسلامية لتعاطى البيع والشراء . وكان هذا التاجر الموسر كلما دخل بلدة جديدة وطاف في ارجائها قادته الظروف الى ان يقف وجها لوجه امام ابي الفتح الاسكندري ويراه بزي جديد يمارس مهنة كلامية جديدة يروى القصص وينشد الاشعار ويستخدم المكر والتلون لكسب عطف السامعين والمشاهدين ونيل عطائهم . وكان عيسى بن هشام ـ أثناء ذلك ـ يتربص الدوائر بأبي الفتح الاسكندري ويداهمه متلبسا بالمكر والتضليل ثم يتبعه خلسة ـ بعد انتهاء المقامة فيجده يفعل بخلاف ما يقول فيفضحه ويلومه أيضا . ومقامات البديع لا تجمعها وحدة موضوع ولكنها ترتبط فيما بينها عبر شخصية أبي الفتح المتلونة والمحبوبة التي يتعرف عليها عيسى بن هشام ويفضحها كما ذكرنا . وجوهر شخصية أبي الفتح الاسكندري أورده أبو الفتح الاسكندري نفسه الذي وصف نفسه بالمكر والخداع أو التضليل والاحتيال والذي أوصى ان يكون المرء دائما كالحرباء ـ يتلون حسب الظروف ليكسب معركة الصراع من أجل البقاء . . ومقامات البديع احدى وخمسون مقامة طريفة تصدى لشرحها كثير من الادباء وهي معقدة التركيب نسبيا في فحواها وذات اسلوب طريف مفعم بالسجع الشعري وبالتورية والجناس والكناية التي تلائم ذوق أهل ذلك الزمان وان كانت مستعصية الفهم من الناحية اللغوية ـ الا على فئة قليلة جدا من « الخبراء » من اهل ذلك الزمان وفي الوقت الحاضر .

ومن طريف ما يروى عن الهمذاني أنه كان يحفظ القصيدة التي تتجاوز خمسين بيتا ويؤديها الى آخرها لا ينخرم منها بيت بمجرد سماعه انشادها مرة واحدة . كما أنه أيضا على ما يقال كان ينظر نظرة واحدة خفيفة الى الاربع والخمس الاوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره ثم يعيدها عن ظهر قلبه . وكان ربما يكتب الكتاب المقترح فيبتدىء بآخر سطر ثم هلم جرا الى الاول .

وقد اختلف النقاد في المفاضلة بين مقامات البديع ومقامات الحريري ولكل حججه والزاوية التي ينظر منها اليها . ويقال ان الذي سبب للبديع تأليف مقاماته « هو أنه رأى ابا بكر بن الحسين بن دريد قد أغرب بأربعين حديثا ذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره وانتخبها من معادن فكره على طبع العرب في الجاهلية بالفاظ بعيدة حوشية » . كما اختلف النقاد أيضا في مواقفهم ازاء مقامات الحريري نفسه . وقد تجلى ذلك الاختلاف بأوضح اشكاله واعنفها واطرفها في موقف ابن الخشاب الذي كان شديد الوطأة على الحريري الى درجة التجني من ناحية وفي موقف ابن بري الذي انبرى الى تسفيه حجج ابن الخشاب من ناحية أخرى .

أنشأ الحريري خمسين مقامة ـ شرحها كثيرون من الادباء ـ مقتفيا فيها اثر البديع وقد جعل بطلها ابا زيد السروجي (كنظيره أبي الفتح الاسكندري عند الهمذاني) . واسند روايتها الى الحارث بن همام

(على نسق عيسى بن هشام عند البديع) . وقد وضع الحريري أولى مقاماته ـ على ما يقول الرواة ـ عام 1101 (495 هـ) وانجز آخرها عام 1110 (504 هـ) واسند روايتها كما ذكرنا الى الحارث بن همام وهو شخصية رمزية من ذوي اليسار وممن يتذوقون الادب . وكان الحارث بن همام يتنقل في ارجاء الخلافة العربية الاسلامية للتزود بالمعرفة وهو يتصف بنفس أبية وبترفع عن المسالك المشينة . اما بطل المقامات فهو ابو زيد السروجي وهو ايضا شخصية رمزية من الادباء ـ الفقراء وله قدرة عجيبة على التلون وابتزاز الاموال عن طريق المكر بالوسائل الادبية المترفة .

ومقامات الحريري هذه مفعمة بالاحاجي اللغوية والالغاز الفقهية والنوادر الاجتماعية والامثال والحكم . وهي بنظرنا اكثر دقة ورقة وشعبية من مقامات الهمذاني، فجاءت مقامات الحريري (احفل واجزل واكمل) كما يقول الشريشي .

ترى لماذا اختار الحريري (الحارث بن همام) راوية لمقاماته وجعل (ابا زيد السروجي) بطلها ؟ اختلف الرواة في شخصية (ابي زيد) واجمعوا على أن (الحارث) و (همام) من الاسماء الصادقة وأوردوا حديثا نبويا مفاده ان كل شخص (يحرث) اي يحاول الكسب هو همام لانه (يهم بحاجته) . وان الحريري يقصد بذلك نفسه وقد جعل الحارث بن همام بصريا ايضا زيادة في التأكيد. اما (ابو زيد) فقد أكد القاضي أبو الحسن علي بن يوسف الشيباني وزير حلب في كتابه الذي سماه « إنباء الرواة على أنباء النحاة » ـ (على ما روى ابن خلكان) أنه نحوي بصري اسمه المطهر بن سلار من اصحاب الحريري ومريديه .

وقال آخرون انه كنية للكبر وذلك لان العرب ـ تسمي الشيخ الهرم ابا زيد وابا سعيد . وقال غيرهم انه كنية للدهر لان الحريري يصف أبا زيد بأوصاف لا تليق الا بالدهر (المتقلب) . وذكر الشيخ الثقة ابو بكر عبدالله بن محمد بن احمد بن النقور البزاز عن الحريري قوله ـ على ما روى الشريشي ج1 ص16 ـ 17 ـ « ان ابا زيد السروجي (كان شيخا) بليغا » ومكديا « منصيحا » ورد علينا البصرة وتوقف يوما في مسجد بني حرام يتكلم ويسأل الناس شيئا » . وذكر اسر الروم ابنته ـ كما ذكرنا في المقامة الحرامية ـ وهي الثامنة والاربعون » .

ويستطرد الحريري ويقول : « فاجتمع عندي عشية ذلك اليوم جماعة من معارف فضلاء البصرة وعلمائها فحكيت لهم ما شاهدته من ذلك السائل .. فحكى كل واحد من جلسائي انه شاهد من هذا السائل في مسجده مثل ما شاهدت وانه سمع منه في معنى آخر فصلا احسن مما سمعت . وانه كان يغيّر في كل مسجد زيه وشكله ويظهر في فنون احتياله . فعجبوا من جريانه في ميدانه وافتنانه في احسانه . فابتدأت في انشاء المقامة الحرامية تلك الليلة حاذيا حذوه فلما فرغت منها أقرأتها جماعة من الاعيان فاستحسنوها غاية الاستحسان واقترحوا عليّ أخواتها والله المستعان » . واشتهرت تلك المقامة فبلغ خبرها وزير المسترشد بالله . فلما وقف عليها اعجبته فأشار على الحريري أن يضم اليها غيرها ففعل . وقد اختلف الرواة في وزير المسترشد هذا لان المسترشد استوزر كلا من جمال الدين عميد الدولة ابن الحسن بن أبي معز علي بن صدقة وشرف الدين ابي شروان محمد بن خالد بن محمد القاشاني . وابن خلكان يرجح الاول منهما لأنه وجد بالقاهرة نسخة من المقامات بخط الحريري وقد كتب على ظهرها أنه صنفها للوزير جمال الدين بن صدقة .

كان الحريري في مقاماته مفتونا بالحركة الصاعدة الديناميكية وقد احتل التنقل الزماني والمكاني مركزا مرموقا في مقاماته . كما كان الحريري مولعا ايضا بتوجيه تلك الحركة الصاعدة الحيوية المتطورة المتعدد الاشكال التي تظهر في سلوك الحارث بن همام وزميله ابي زيد السروجي والسيطرة عليها في تفاصيلها وفي مجراها العام . وقد ظهر الانسان أثناءها (ممثلا بالحارث بن همام تارة وبأبي زيد السروجي تارة أخرى) ـ مع تناقض في السلوك بين الشر والخير أو بين الواقع الفاسد الذي يعبّر عنه السروجي وبين ما ينبغي أن تكون الحياة عليه كما يبدو ذلك عند الحارث بن همام ـ وكأنه جزء لا يتجزأ من تلك الحركة التي تمثل حالة المجتمع آنذاك . وهذا يعنى بعبارة اخرى ان الحريري الذي تقمص شخصية الحارث بن همام كان يسعى بشكل لا يعرف الكلل أو اللين أو المهادنة لجعل الانسان أو الفرد يحتل مكانته المرموقة اللائقة به وذلك بسعيه الحثيث لاستئصال مفاسد المجتمع التي تبدو ـ مجسدة في سلوك أبي زيد السروجي . وكان الحريري ـ في ذلك كله ـ منغمرا كل الانغمار في ابراز الرابطة العضوية (الديالكتيكية) ـ غير القابلة للانفصام بين مطمح الفرد نحو التحرر والانعتاق والتقدم وبين الواقع الفاسد الذي يعيش فيه . وهذا يعني بعبارة أخرى أن الحريري كان مولعا الى درجة الافراط بالحركة الديناميكية الصاعدة للحياة والمجتمع والفرد نحو المستقبل الافضل . وكان بطلاه الرمزيان (الحارث بن همام) و (ابو زيد السروجي) يظهران دائما وابدا في حركة دائبة متواصلة تبدو في كل مقامة من المقامات الخمسين وفي كل فقرة من فقراتها . وكل مقامة من تلك المقامات كانت في حقيقتها كيانا واحدا متماسكا ديناميكيا متدفقا صاعدا كما كانت المقامات كلها كيانا واحدا متماسكا صاعدا أيضا .

وفي مقامات الحريري تتجلى النزعة الانسانية (Humanism) ممثلة ببطله الحارث بن همام الذي كان يسعى دائما وابدا الى التغلب على مفاسد المجتمع المتجسدة في سلوك أبي زيد السروجي . وهنالك على ما ارى اوجه شبه كبيرة وكثيرة بين الحريري ـ من هذه الناحية ـ وبين أدباء عصر النهضة الاوربية وفنانيها في ايطالية بصورة خاصة وبالدرجة الاولى وفي الاقطار الاوربية الاخرى أثناء القرون الوسطى وذلك لتشابه الظروف الاجتماعية العامة على وجه العموم مع مراعاة اختلاف المميزات المحلية الخاصة وباستطاعة الباحثين عند المتخصصين بالادب والتاريخ أن يكشفوا عن تفاصيل أوجه الشبه والاختلاف بين المجتمعين (الايطالي والعربي الاسلامي) آنذاك وبين الادب في المجتمعين عند موازنة ما كتبه المؤرخون ـ العرب والمسلمون عن المجتمع العربي الاسلامي في القرن الحادي عشر وما كتبه ماكيافيلي في كتابه « الامير » بصدد الاوضاع المحلية في الولايات الايطالية آنذاك وبخاصة من ناحية الصراع بين دعاة الحق والعدالة الاجتماعية وبين الفارقين في الرذيلة الى الاذقان . وقد رفع الحريري بطله الحارث بن همام الى ارفع مستويات الفضيلة ورفع أدباء عصر النهضة الاوربية وفنانوها ابطالهم الى اعلى المستويات المثالية الخيالية واضفوا عليهم صفات البسالة والاريحية والشهامة والتضحية وجعلوهم كأنهم فوق البشر واعتبروهم رمزا للحق والعدالة الاجتماعية والانتصار لكرامة الانسان المهدورة . وبدا اولئك الابطال في تنافر مع أسس المجتمع الاقطاعي ـ الذي عاشوا فيه . وهذا التنافر هو ـ في جوهره

تعبير دقيق وأمين عن طبيعة الظروف الاجتماعية السائدة . وقد ظهر البطل وكأنه يكافح من اجل اشاعة مثله الانسانية العليا بين الناس وتجسيدها بالفعل وهو بمعزل عن غيره وحيدا في الميدان يحارب في جبهتين احداهما على الصعيد الحكومي الرسمي ممثلا بالقضاة والامراء والوعاظ والاخرى متمثلة بالاشرار من عامة الناس . وكثيرا ما يلقى البطل مصرعه بفعل اعتداءات قوى الشر العاتية ولهذا فان البطل مع اتصافه بالشجاعة النادرة ينهار في آخر المطاف ويعجز عن تحقيق الظفر المؤزر أثناء صراعه الشريف العادل وغير المتكافىء مع قوى الشر . كما ظهر ذلك عند شكسبير في هاملت وعطيل . أما عند الحريري فقد ظهر ذلك – لعوامل محلية خاصة – في توبة أبي زيد وندمه على ما فرط منه وعودته الى الالتزام بمبادىء الدين الحنيف والى الاقامة من جديد في بلدته « سروج بعد ان فارقها العلوج » ولسان حاله يقول مع شوقي على لسان المجنون :–

تركت ورائي الشام لم انتفع بـه

ولا هو من وجدي القديم شفاني

وعدت الى نجـد اقاسي صبابتي

وشـوقي كأني ما برحت مكاني

وهكذا يختتم الحريري مقاماته الخمسين بالعبارات التالية (المقامة البصرية) على لسان الحارث بن همام في وصف مصير ابي زيد السروجي : « ثم ودعني وانطلق واودعني القلق . فلم ازل اعاني لاجله الفكر وأتشوّف الى خبرة ما ذكر . وكلما استشنيت خبره من الركبان وجوابة البلدان كنت كمن حاور عجماء ونادى صخرة صماء . الى ان لقيت بعد تراخي الامد وتراقي الكمد ركبا قافلين من سفر فقلت هل من مغرِّبة خبر ؟ فقالوا أن عندنا لخبرا اغرب من العنقاء واعجب من نظر الزرقاء . فسألتهم ايضاح ما قالوا وان يكيلوا بما اكتالوا . فحكوا انهم الموا بسروج بعد ان فارقها العلوج فرأوا ابا زيدها المعروف وقد لبس الصوف وأمّ الصفوف وصار بها الزاهد الموصوف » .

تتجلى وحدة موضوع المقامات – رغم تشعب محتوياتها في انها تروي قصة تنقل ابي زيد السروجي بصورة مستمرة وتصف تطوافه منذ المقامة الاولى في ارجاء الوطن العربي الاسلامي بفعل اجتياح الغزاة الروم مسقط رأسه سروج ثم عودته في آخر المطاف الى بلدته بعد ان رحل عنها الغزاة . كما تصف ايضا « تطوافه » المستمر بضروب السلوك النابي عن الذوق السليم وغير المنسجم مع المبادىء الاخلاقية السامية التي نادى بها الدين الحنيف ثم نبذه في آخر الامر جميع تلك التصرفات وتمسكه بالخلق القويم ، كما ورد في المقامة الخمسين – البصرية في الفقرات التي سبق ان ذكرناها . وهذا يعني بعبارة اخرى أن بامكاننا اعتبار المقامات – المتناثرة – من حيث محتواها او مضمونها قصة او رواية بفصول متعددة تجمعها وحدة الموضوع ووحدة الهدف وانها تتسم بالطابع الرمزي الذي استلزمته ظروف اجتماعية قاهرة شريطة ان نأخذ بعين الاعتبار ان الجانب الرمزي هنا لا يعني الجانب التجريدي المألوف فالسروجي شخص رمزي – مع تعدد حالاته وكذا الحال في الحارث بن همام مع وحدة سلوكه والتزامه الاجتماعي : جمع الاول منهما – بشكل رومانتيكي جميع الصفات غير المستساغة التي يتصف بها اشخاص متعددون في مختلف مشارب الحياة وجمع الحارث بين نقيضها .

يبدو أن ولع الحريري باسلوب التعبير وبراعته اللغوية الفائقة وقدرته العجيبة على التلاعب بالالفاظ وغزارة مفرداته اللغوية قد طغت جميعها على محتوى ارائه الاجتماعية البالغة الاهمية بنظرنا وحجبت ذلك المحتوى (الاجتماعي والسايكولوجي العميق) عن انظار القراء وعن انظار شارحي المقامات (وهم ادباء في الاصل) على حد سواء فاسدلت على ذلك المضمون (الذي هو في الاصل الغرض الذي يسعى الحريري نحو تحقيقه) غطاءا كثيفا من التعابير الرقيقة المترفة الانيقة بحيث أصبح ذلك الغطاء اللغوي الكثيف يبدو للسطحيين كأنه الذي يرمز الحريري اليه . ويلوح ايضا بنظري ان براعة الحريري اللغوية التي استلزمتها ظروف مجتمعه آنذاك – هي التي دفعته الى استخدام الفاظ نابية (بمقاييسه ومقاييس غيره ايضا) في بعض مقاماته (وقد اعتذر عن ذلك في خاتمة المقامات كما سنرى) . ويبدو أن غرضه الرئيس هو التعبير عن تضلعه باللغة ورده الضمني على الذين يزعمون بان المتضلعين في اللغة قد انتهى امرهم في القرن العاشر ولم يحل محلهم احد (كما ورد صراحة في المقامة السادسة : المراغية) . وظاهرة العزل بين المحتوى او المضمون وبين الشكل او اسلوب التعبير ظاهرة معروفة وسائدة في الادب والفن على وجه العموم . وقد تركز حولها الجدل وتعددت في تفسير طبيعتها وجهات النظر في ترجيح احد عنصري الادب والفن (المتلاحمين) على زميله دون مسوغ معقول . وهذه الظاهرة بالذات هي التي جعلت فريقا من المعنيين بدراسة هذه الظاهرة نفسها (والظواهر الاخرى المماثلة في الادب والفن) يفصلون – دون وجه حق – بين ما يسمونه الجانب الفكري للكاتب والفنان (محتوى ادبه وفنه) فصلا تاما ومطلقا من جهة وبين جانبه الجمالي أو الفني (اسلوبه في التعبير) من جهة أخرى . والبحث في هذه القضية يقع خارج نطاق هذه الدراسة .

لقد تجلى الحريري – في مقاماته – شهما جوادا اريحيا مترفعا عن تعاطي كل ما يشين الرجال كما ظهر ذلك في تصرفات الحارث بن همام الذي تقمص شخصيته . وهذا يظهر بنظري حتى في وصفه الانيق للخمرة مثلا وفي المواقف التي يبدو فيها كأنه معتكف على تعاطيها بشكل مدمن ومباشر كما ظهر ذلك في تصرفات السروجي . فقد كان الحريري في ذلك كله مفتونا – كما ذكرت – بالتعابير اللغوية الانيقة والالفاظ المترفة وبالوصف الادبي البرىء لا بالممارسة . وتلك حالة ليست بالغريبة على الادباء والفنانين والشعراء القدامى والمحدثين في الغرب وفي عالمنا العربي على حد سواء . فقد تغنّى رابالي (1495 – 1553) الكاتب الفرنسي في وصف النبيذ واطنب في اظهار محاسنه واطرى عليه دون ان يذوق طعمه على ما يقول بلزاك (1799 – 1850) . ويجرى هذا المجرى – على ما نظن – استخدام الحريري الفاظا نابية على لسان السروجي في مناسبات متعددة كما ورد ذلك مثلا في المقامة العشرين الفارقية وفي المقامة الثانية والعشرين الصورية وفي المقامة السادسة والاربعين الحلبية .

●